

المرحلة 9 ــ 12 البرامج الأجنبيّة

المــادّة: اللّغة العربيّة الصـّـفّ: التّاسع- الدّبلوما الدّوليّة. الشّعبــة: ( )

اسم الطّالبـ/ــة: الفصل الدّراسيّ: الأوّل 2022

**المدينة**

**بقلم: جون أبدايك**

**أخذتْ بطنه توجعه في الطّائرة عندما غيّرت المحرِّكات سرعتها للهبوط في هذه المدينة، ألقى كارسون اللّوم في بداية الأمر على الفستق المُملَّح المُعبَّأ في كيس صغير من الورق القصديريّ الفضيّ الذي قدَّمته له المضيفة في السّاعة العاشرة من صباح ذلك اليوم.**

**كان كارسون يعمل مدرِّسَ رياضيّات في مدرسةٍ لإدارة الأعمال؛ أمّا الآن، فإنّه أصبح وكيل مبيعات لمصنعٍ في نيوجرسي متخصِّص في الحواسيب الصّغيرة وأنظمة معالجة المعلومات.**

**وبعد أن أمضى عقودًا من السّنين في قيادة سيّارته في شوارع الضّواحي ذاهبًا من منزله إلى مدرسته وبالعكس، صار الآن، وهو في الخمسين من عمره، ذوّاقة للمُدن، وأحيائها المركزيّة النّامية، وأحزمتها الصّناعيّة المتضخِّمة، وسككها الحديديّة الصّدئة، وأبنيتها الزّجاجيّة الجديدة، وفنادقها المكسوة أرضيّتها بالزّرابي ذات اللّون البرتقاليّ. ولكلِّ مدينةٍ لهجةٌ خاصَّة بها، وزيٌّ نسائيٌّ محلّيٌّ، وحيٌّ قديمٌ تاريخيٌّ متميِّز، وناطحةُ سحابٍ ذات شكلٍ غريب، ومتحفٌ يضمّ لوحةً لسيزان، أو قُلْ، لونسلو هومر، لا تجد مثيلًا لها في أيِّ مكانٍ آخر. ولم يكُن كارسون قد زار من قبل المدينة التي ينزل فيها هذه المرَّة.**

 **وربَّما أدّى تخوُّفه وتوتُّره من اللّقاءات الجديدة الّتي يتحتّم عليه إجراؤها، والإقناع الّذي يتوجَّب عليه القيام به، إلى بذر الألم في وسط معدته وظلَّ يُلقي اللّوم على الفستق. فلم تكتفِ المضيفة الشّابة، بإعطائه كيسًا واحدًا من ذلك الفستق بل كيسَين، وقد أكلَ ما في كليهما.**

**وضع كارسون جانبًا الأوراقَ الّتي كان منكبًّا عليها وهي تتعلَّق بالأنظمة المعلوماتيّة، والطّابعات ذات العجلات الدّائريّة، ومولِّد الخطوط البيانيّة الاختياريّة، وألقى نظرةً أخيرةً على أسباب تداعي صحَّته، الفستق، الازدحام. وبالإضافة إلى كلِّ شيءٍ آخر، تأكَّدَ له أنَّه كان مُتعَبًا، مُتعَبًا من الأرقام، مُتعَبًا من السّفر، ومن الطّعام، ومن تدقيقِ الحسابات، ومُتعَبًا حتّى من العناية بنفسه الاستحمام وحلاقة الذّقن في الصّباح، ووضْع نفسه في ملابسه ثمَّ، بعد ستّ عشرةَ ساعةً، إخراج نفسه منها. وازداد الألم تدريجيًّا، وتخيَّل كارسون هذا الألم على شكل فقاعةٍ كرويّةِ الشّكل، ساخنةٍ، بطيئةِ الحركة، ستنفجر لو استطاع أن يركِّز عليها أشعةَ التّفكير الصّحيح اللّيزريّة.**

**وفي طابور انتظار سيّارات الأجرة، شعر كارسون بأنّه أكثر ارتياحًا إنْ وقف وهو مُنحنٍ قليلًا وكان هواء الخريف البارد ينفذ إلى جلده من خلال ملابسه لا بدّ أنّه يبدو مريضًا، فقد كان يجتذب إليه نظرات زوار المدينة الآخرين. أمّا الشّابان اللذان حاصراه بكتفيهما مدّةَ ثلاث ساعات في الطّائرة، فقد ذابا في الزّحام مع الكثيرين من أمثالهم من الشبّان الذين يحملون حقائبهم اليدويّة ويرتدون الأحذية ذات الأشرطة المعقودة.**

**لم يُعطِ كارسون سائقَ سيّارة الأجرة عنوان صاحب مصنع أجهزة التّصغير والتّمارين، وإنّما أعطاه عنوان الفندق الذي حجز غرفةً فيه، فقد هبطتْ عليه موجةٌ مفاجئةٌ من الغثيان، مثل هبوط طائرة الـ 747، جعلتْه يتّخذ قراره ذاك. وبينما كان يسير خلف خادم الفندق المُتَّشح ببذلةٍ قرمزيّة اللّون في الممرِّ المغطَّى بسجادٍ برتقاليِّ اللّون، أثارت الألوان اشمئزازه، وبدت له الجدران وأرضيّة الممرِّ منبعجةً وملتويةً، وكأنَّ ذلك الألم الذي لم ينتهِ قد مسخه إلى مجموعة من الأجزاء الجديدة بلمسةٍ من إصبع أحدهم على مطراف الحاسوب. وهاتفَ شركة التّمارين من غرفته بالفندق، شارحًا حالته للفتاة التي ردّت عليه، وطالبًا موعدًا جديدًا في صباح الغد، قبيل موعدٍ آخر مضروبٍ له مع رئيسِ محاسبي شركةٍ صغيرةٍ مزدهرةٍ أُخرى. لقد انزعج كارسون من جدول المواعيد المزدحمة، ولكنَّه انزعاج غير مباشر، لأنَّ جميع هذه المواعيد سيهتمُّ بها شخصٌ آخر مختلفٌ تمامًا هو نفسه بعد أن يُشفى ويستعيد نشاطه. وكانت الكاتبة الّتي تحدَّث معها هاتفيًّا متعاطفة معه وتتكلَّم بلهجةٍ مريحة وغريبة تطيل بعض المقاطع وتقصِّر بعضها الآخر وأوصتْه بتناول حبوب مالوكس. وكان في الإمكان، طبقا للأفلام السّينمائيّة الّتي كثيرًا ما شاهدها في طفولته وطبقًا للحياة المثاليّة الّتي كان يتخيّلها، أن يُرسل شخصًا ما لجلب الدواء له، ولكن في جميع تنقّلاته في سنواته الأخيرة، من فندق إلى آخر، لم يرَ ذلك يحصل أبدًا، لقلّة الخدم العاملين في تلك الفنادق؛ ولهذا فقد نزل بنفسه إلى صيدليّة الفندق.**

**كان للدّواء مذاقٌ كلسيٌّ وفيه مثل بقايا الحصى، وقد أعطى هذا الدّواء، بعد فترةٍ من التّردُّد، بُعدًا جديدًا للألم مثل نتوءٍ رمليٍّ صغير. وكانت أرضيّة غرفته في الفندق مكسوَّة كذلك بالسّجّاد البرتقاليّ اللّون، ولها ستائر أرجوانيّة اللّون، قام كارسون بإسدالها بعد أن ألقى نظرةً على ساحةٍ مكشوفة في حديقةٍ عامّة كان يلعب فيها مجموعة من الأولاد كرةَ القدم وسطَ الأوراق المتساقطة من الأشجار، وصرخاتهم تمزِّق طبلةَ الأُذن، وفتح جهاز التّلفزيون، ولكنّه هو الآخر يصمُّ السّمع. واستلقى على أحد السّريرَين الموجودَين في الغرفة وأخذ يحدّق في السّقف ويتردّد على المرحاض، تاركًا الظّهيرة تحترق في المساء، وفكَّرَ كيفَ تكون التّعاسة نفسها نوعًا من السَّكَن. وكان سقف الغرفة مغطّى بالجبس على شكل حلقات بعضها فوق بعض مثل حراشف سمكة كبيرة بيضاء. ومن أجل أن يغيّر كارسون وضعيَّته، مدَّد نفسه فوق أرضيّة الحمام الباردة وهو يتأمَّل المكان والجوانب الدّاخليّة للقطع الخزفيّة المعلَّقة على الجدران، ويُلقي نظرةً على الأشعة البعيدة المعينيّة الشّكل الصّادرة عن مرآةٍ مصغَّرة.**

**ولم يستطِع الدّواء المُسهل الّذي تناوله مرارًا تخليصه من هذا الألم الطّارئ، بل لم يعُد ذلك الشّيء الرّمليّ الّذي كان يحسّ به في معدته كرويّ الشّكل، وإنَّما أصبح مُستطيلًا متَّسعًا. وعندما بدأ كارسون التّقيؤ أخذ الأمل يراوده. ولكنَّ هذا الأمل تلاشى مع اختفاء ضوء النّهار. فقد أصبح الألم رفيقًا ثابتًا لم يستطِع التّخلُّص منه على الرّغم من محاولاته المتعدِّدة، ودقيقة بعد أخرى لم يزدد الألم سوءًا، ولكنَّه لم يتوقَّف. وتبادر إلى ذهنه أن حالته تدعو إلى الصّلاة..**

**وألقى ضوءُ النّهار المودِّع هالاتٍ بُنيّةَ اللّون ريشيّةَ الشّكل على الأسطح المنحنية لأثاث الغرفة، وعلى قوائم الطّاولة وصحون المصابيح. وتخيَّلَ كارسون أنّه لو دقّ جرس الهاتف لتهشَّم ألمه. وبينما كان متكوِّرًا على جانبه، أخذته غفوةٌ قصيرة ثمّ استفاق على الألم، فوجدَ الغرفة غارقةً في الظّلام، ما عدا بصيصًا شاحبًا من ضوء الشّارع على الشّبّاك، وقد اختفى لاعبو كُرة القدم. وتساءلَ عمَّن يكون هناك في الخارج خلف الظّلام يمكنه الاتّصال به لمساعدته.**

**اتّصلَ بمكتب الاستقبال في الفندق طالبًا نصيحتهم. فردَّ عليه صوتُ رجُلٍ في مقتبل العمر، يبدو من انشراحه أنّه بدأ نوبته في العمل لتوّه، واقترح عليه أن يذهب إلى عيادة الطّوارئ في مستشفى المدينة. وبأصابع مرتعشة، ربط خيوط حذائه بصعوبة، وابتسم إذ وجد نفسه بطل مسرحيّة مأساويّة بلا جمهور ولا مشاهدين، وارتدى ملابسه وأخرج جسمه المتوجِّع برفقٍ إلى الهواء الطّلق. وكان طابور من سيّارات الأجرة ينتظر تحت أضواء الشّارع الصّفراء الحادّة التّوهُّج. ورأى الإعلانات المخطوطة بمصابيح النّيون، وأسماء المحلات المُضاءة، وإشارات المرور الضّوئيّة الحمراء والخضراء، وهذه لمحات من مدينة كان من المعتاد أن يتجوّل في شوارعها في مثل هذا الوقت بعد انتهاء عمله اليوميّ، باحثًا عن مطعمٍ.**

**كان المستشفى يقع على مسافة بعيدة من الفندق، ويتكوَّن من بنايةٍ ضخمةٍ متوهّجةِ الأضواء يتّصل بها عدد من الملاحق الحديثة، تقبع في نهاية ممرٍّ منحرفٍ يخترق حديقة عامّة مظلمة ومجموعة من الدّور المنخفضة. وكان كارسون يتوقَّع أن يسلِّم عبءَ جسمه كليًّا حالَ وصوله إلى المستشفى، ولكنّه بدلًا من ذلك وجد نفسه مضطرًا لحمل ذلك العبء خلال سلسلة من الجهود الجديدة التي كان عليه أن يبذلهاـ استمارات يجب عليه تعبئتها، وأدلّة ثبوتيّة على قدرته الماليّة تؤهلّه ليكون مريضًا ينبغي عليه تقديمها، وسلسلة من فترات الانتظار كان عليه تحمُّلها على مصاطب مزدحمة وكراسي مبطَّنة.**

**وبدا أوّل طبيب سُمح لكارسون أخيرًا برؤيته، شابًّا ليّنا مراوغًا مثل ابنه المسافر. فكلاهما له شعر أشقر جدًّا بحيث يبدو وكأنّه شعر اصطناعيّ. ولمّح هذا الطّبيب إلى أنَّ زوجته تنظِّم حفل عشاء تلك اللّيلة في الجانب الآخر من المدينة وقد تأخَّر عن الموعد، ومع ذلك فإنَّ هذا الطّبيب الشابّ أجرى الفحص عليه بلطف، واعترف الطّبيب أنَّ حالة كارسون تحيّره، فالألم يبدو غير مستقرّ في مكانٍ واحدٍ ليتمكَّن من تشخيصه بالتهابِ الزائدةِ الدّوديّة، الّذي هو، علاوة على ذلك، ليس اعتياديًّا لرجلٍ في مثل سنِّ كارسون.**

**وتلا ذلك فترةُ انتظارٍ أُخرى تخللّها وخزُ إبرٍ لإجراء فحوص الدّم، وهذرُ ممرِّضات اعتدن على المهنة، وخطر له أنَّ الإنسان قد يموت في المستشفى أثناء تلك الإجراءات البطيئة.**

**وكان جميع الّذين من حوله، على المصاطب وفي المساحات العارية من قاعات المستشفى المتعدِّدة وعليهم هيئة التّضرُّع، هم من أهالي المدينة وأغلبهم من السود، وكلّهم مثالٌ للاصطبار الهادئ، فحاول أن يقلِّدهم على الرّغم من صعوبة الجلوس باستقامةٍ وقد أخذتْ حنجرته تؤلمه من الكبت.**

**وكانت نتائج فحوصه تتقاطر من مصادرها.**

**وقبيل منتصف اللّيل أوى إلى فراشٍ في قسمٍ أشبه ما يكون بقسمِ حفظِ الحالات الطّارئة في المستشفى. وكانت تحيط به ستائر بيضاء، ولكن ليس بدون ضوضاء. ورقد، في السّريرَين المحيطَين به من الجانبين، رجلان تجمعهما أشياء مشتركة كثيرة على ما يبدو، إذ كانا يئنان ويغنيّان أغنيات لا لحن لها. وعندما يزورهما الأطّباء كانا يتوسّلان إليهم للسّماح لهما بالخروج من المستشفى ويعِدان بأن يكونا مستقيمَين من الآن فصاعدًا. وبعد وهلةٍ جاء من أحد جانبيه صوتُ تقيؤ دافق، مثل تقيؤ قطّة بعد أن أكلت طيرًا بعظامه وبأكمله، وفي الجانب الآخر كان الأطبّاء يحاولون إدخالَ أنبوبٍ في أنف الرّجل. أما هو فكان يخضع للفحص في فتراتٍ متباعدة. وطمأنتْ هذه التحرُّكات كارسون إلى أنّه استطاع الدّخول في شلّة المعترف بهم من الرّجال المحطَّمين. وهدَجَ نحوه طبيبٌ شابٌّ آخر، لا يذكّره بابنه، وإنّما يذكّره أكثر بمساعد المحامي الماكر، الّذي كان يعيش. وبعد أن وخز الطّبيب الجديد بطنه بإصبعه بضع مرّات، هزَّ كتفيه وانصرف. ثم أتته طبيبةٌ لها شعر أسود في الأربعينيّات من عمرها، وحدّقت في وجهه بتسلية عميقة. تتحدَّث بلهجة أجنبيّة، وقالت: "أنت لا تحتمل كثيرًا" فقال ناعقًا: "أحتمل؟" وأدرك لماذا.**

**وضغطتْ بإصبعها على بطنه بشدّة في عدّة مواضع. وقالـت: "يجب أن أكون قادرة على أن أفعل ذلك. وأنتَ يجب أن تقفز إلى السّقف". ولم يفهم المقصود من كلامها بسبب لهجتها. فأخبرها قائلًا: "إنّ ذلك يؤلمني فعلًا." فقالت: "ليس بما فيه الكفاية". وحدّقت بصورةٍ حادّةٍ في عينيه، وكانت عيناها تغطيهما الظّلال، وأضافت: "أظنُّ أنّنا سنجري فحوص دم أُخرى".**

**وتساءل كارسون في نفسه عمّا إذا كان هذا الطّبيب قد أُخرِج من وليمةِ عشاء في هذه السّاعة الّتي تجاوزت منتصف الليل، وهو يرتدي سترته وربطة عنقه اللتين يلبسهما في جميع الأوقات. وتمنّى كارسون أن يردَّ الجميل لهذا الطّبيب، ولكنّه لا يستطيع ذلك وهو في وضعه السّيئ. وتأمَّلَ الطّبيبُ، وعلى شفتَيه ابتسامة خفيفة، وجهَ كارسون كما لو كان يحاول فكَّ لغزه، فحملق كارسون في الطّبيب وعلى وجهه توسُّلٌ وأملٌ عاجز، وظلَّ صامتًا مثل كلبٍ لا يمكنه إلا أن يعوّي أو ينشج. لقد كان مرهقًا بسبب حالته الطّارئة والألم في أحشائه، كما كان مُتعَبًا خلال الاثنتي عشرة ساعة التي سبقت ذلك.**

**"أودّ أن أجري لك عملية". قالها الطّبيب بلطف، كما لو كان يتقدَّم باقتراح قد يرفضه كارسون.**

**قال كارسون: "آه! نعم، تفضَّل. ومتى؟" وكان مدركًا أنَّ هذا الطّبيب في صحّة جيدة، ولا بُدَّ أنَّ له منزلاً يليق به وأسرة وحياة اعتياديّة على الرّغم من الاضطرار للعمل في أوقات مزعجة وبيئة مؤلمة، وقد اعتاد على ذلك.**

 **"متى؟ الآن حالًا". هكذا كان جواب هذا الطّبيب في لهجة استغراب، ثمَّ وقف وخلع سترته، كما لو كان سيشترك بصورةٍ مفاجئةٍ في حدثٍ رياضيٍّ مبتكرٍ ممتع.**

**لعلَّ كارسون تصوَّر حركة الطّبيب فقط، لعلَّه فكّر في كلمة (الرّحمة)، أو أنّه فاه بها فعلًا، فقد سارت الأمور بسرعة بعد ذلك. وعاد الطّبيب الماكر الّذي يشبه مساعد المحامي وقد أصبح الآن أكثر رِفقًا بعد أن حاز كارسون على ترقيةٍ في مكانته، وطلبَ منه أن يستدير على أحد جنبَيه، ثمَّ غرز إبرة في وركه. ثم تولّى ممرضان نقله برفقٍ من السّرير إلى طاولة طويلة متحرِّكة على عجلاتٍ ناعمة، وراحت السّتائر البيضاء، والوجوه، والأضواء، وعوارض الأبواب المعدنيّة تجري أمام ناظرَيه. وأُدخِل كارسون، بدءًا برجلَيه، في غرفةٍ متوهجة الأضواء عَرف أنّها غرفة العملياّت لكثرة ما رأى مثيلاتها في الأفلام. وكانت فيها مجموعة من الشّبّان الملثَّمين، وهم يدردشون كما لو كانوا في حفلةٍ من الحفلات. وقال كارسون في نفسه متعجّبًا: "ما أكثركم!" وكان سعيدًا جدًّا، إذ توقَّف ألمه لتوّه. ونقلوه من الطّاولة المتحرِّكة إلى منضدةٍ مبطَّنة ضيّقة وعالية، وأُفرجت يداه على مسندي المنضدة ورُبطتا بإحكامٍ إليهما، ونُغِزت معصماه. ووضِعت قطعة من المطّاط المنفوخ على وجهه كما لو كانوا يجربون ملاءمتها له. وحاول أن يُطمئِن الفريق الطّبيّ الملثَّم ويقول إنّه غير خائف، وينتزع إعجابهم بـ "الفتى الشّهم" الذي هو هو، وأن يطلب من شخصٍ ما أن يلغي مواعيده ليومِ غد.**

**ومن مكانٍ يكتنفه الغموض وفي لحظةٍ غير محدَّدة ، ظهر الطّبيب الجرّاح نفسه، ولم يعُد مرتديًا سترة الصّوف الغليظة وإنّما مريلة المستشفى ذات اللّون الأخضر النباتيّ، وانحنى عليه بوجهٍ بشوش، ورفع إصبعًا صغيرًا معقوفًا من إحدى يديه أمام عيني كارسون اللتين لم يستطيعا التّركيز. وقال بصوتٍ يخرج مع أنفاسه" بغلظ هذه الإصبع"
فسأل كارسون، وهو يدرك أنّهم يتحدثون عن زائدته الدوديّة: "وما هو الحجم الذي ينبغي أن تكون" عليه؟وجاء الجواب المصحوب بموجة من الارتياح: " ليس أغلظ من" فسأل كارسون: ولكن متى كبرتْ؟**

**وقبل ذلك، كان كارسون قد وجد نفسه في غرفةٍ تحت الأرض تحتوي على عدَّة أعمدةٍ صاعدة. وسمع شابًّا ضخمًا يناديه: "ها، بوب! أفِق يا بوب. ابتسم لنا قليلًا. هذا هو الفتى، بوب! كان هنالك آخرون ممددون إلى جانبه في سرداب الموتى، الذي تتدلّى من سقفه أنابيب شفّافة. وتلك كانت الأعمدة الصّاعدة. وعلى بُعد ذراعٍ منه رجلٌ آخر ممدّد بلا حراك مثل تمثال أحد فرسان القرون الوسطى منحوت من الحجر، وأدرك كارسون أنه حُشِر في نفق ـ وذراعه مشدودة بشريط المطاط المنتفخ ـ وأنّه خرج من نهاية النّفق الأُخرى. "ها، يا بوب! أسرع، أعطنا ابتسامة، هكذا" وكان سائل يتقاطر في ذراعه.**

**ولاحقًا، وبعد أن تبادل كارسون بضع كلمات رقيقة مع الجراح، وجد نفسه في غرفة مستشفًى عاديّة. وكان رجل قصير ذو وجهٍ ضيّق متكدِّر يستلقي في الفراش الذي بجانبه وهو يدخّن ويحدِّق في جهاز التلفاز. وعلى الرّغم من أنّ الصّورة متموّجة على شاشة التّلفاز، فإنّه لم يسمع صوتًا صادرًا منه. وقال كارسون للرّجل: مرحبًا، وهو يشعر بخجل وتوجُّس كما لو كان في أحلامه قد عُقد قرانه على هذا الرّجل.**

**وردَّ الرجل الآخر قائلا: أهلا، دون أن يرفع عينيه من جهاز التّلفاز، وسحب نَفَسًا من سيجارته بصوتٍ مسموع، وقد بدا عليه الضّجر واللامبالاة.
وعندما أفاق كارسون مرّةً أُخرى عند الغسق، وجد نفسه في غرفة أُخرى، غرفة خاصّة به وحده، وقد أخذت بطنه تؤلمه، وصار رأسه أخفّ مما كان. وأطلّ هلال صغير بارد في السماء من خلال الشبابيك المربّعة الموجودة في هذا الجناح الآخر من المستشفى، وبدا له الآن أنَّ وضعه في العالَم وفي الكون أصبح واضحًا بما فيه الكفاية.**

**لقد بدأتْ فترة النّقاهة.**

**وكان، في الأيام الخمسة التّالية، غالبًا ما يتساءل عن سرّ شعوره بالسّعادة. لقد كان كارسون يخاف دائمًا من الزّائدة الدّوديّة منذ طفولته، بعدما رأى عددًا من رفاقه في المدرسة يُحمَلون بسرعةٍ إلى المستشفى ثم يعودون وعلى الجزء الأسفل من بطونهم ندبة صغيرة.**

**لم تكُن ندبته ذلك الشّقّ الجانبيّ الصّغير الذي كان يكشف عنه له رفاقه في المدرسة، وإنّما جرح كبير ملطَّخ بالدم ويمتدُ من السُّرّة إلى أسفل، لقد شقّوا في بطنه شقًّا واسعًا، كما شرحوا له؛ لأنّ مرضه، وهو في مثل ذلك العمر، يحتمل أن يكون أيّ شيء من القرحة إلى السّرطان.**

**لقد جعلته حياة المستشفى نفسها بتفاصيلها يشعر بالارتياح. فهناك السّرير الأبيض المشدود الذي له ذراعا تحكُّم لرفع مرتبة الفراش وطيّها في أوضاع مريحة متعدِّدة. وهناك جهاز التلفاز المثبت في مكانٍ عالٍ أمامه، الذي يستجيب لمجموعة من الأزرار موضوعة في كفِّه مثل بندقيّة أثيريّة بريئة، فيستطيع ـ بدون أن يبذل أيَّ جهد ـ التّجوُّل ذهابًا وإيابًا في برامج الأخبار الصّباحيّة، وبرامج المسابقات في الضّحى، وآخر الأخبار ظُهرًا، وبرامج المقابلات بعد الظّهر، والأفلام الكلاسيكيّة التي يعاد عرضها مثل كارول بيرنت وأبطال هوغان في الليل. وعندما يغادر الزوّار القاعات ويعود الهدوء إلى المستشفى، يصير جهاز التلفاز، بألوانه الرّاقصة وإشعاعه المتموِّج، رفيقًا أكثر مودّةً ودفئًا..**

**وقد شاهد كارسون، في أوّل أُمسية أمضاها في هذه الغرفة الغالية وهو ما يزال يترنَّح من أثر التخدير، شاهد شخصًا صغيرًا أبيض، يسدِّد رمية كرة، كما لو كان يقوم بغرز إبرة بصورةٍ مفاجئة، ثم ينطلق جاريًا في خطٍّ منحنٍ كبير نحو الهدف في الملعب الأمريكيّ، وتمثّل له دخول الكرة في المرمى لذيذًا كأنّها تنفّذ إلى أعماق نفسه. وضغط على الزّر الّذي يطفئ التّلفاز في آلة التحكُّم الصّغيرة، واستعمل زرًّا آخر ليعدّل من ميلان السرير، واستغرق في النوم ببساطةٍ مثل طفلٍ صغير.**

**كان يفضّل، في العادة، أن يتغطّى بأغطيةٍ كثيرة، أمّا هنا فإنّ غطاءً واحدًا خفيفًا يكفي تمامًا. ولم يكن يستطيع أن ينام على ظهره عادة، أمّا هنا، وبحكم الضرورة، فإنّه لا يمكنه أن ينام بوضعٍ آخر، فهو ينام على ظهره مع ميلان الجسم قليلا لتخفيف الألم العموديّ في بطنه، في حين تظلّ ذراعه اليسرى إلى جانبه لتتلقّى السّوائل المغذِّية (المصل) من أنبوب طوال الليل. كانت المصابيح مضاءة دائما، وهمهمة الأصوات مستمرّة في القاعة..**

**وفي أغوار تلك الليلة التي حدثتْ فيها انطلاقة اللاعب نحو الهدف، أفاق كارسون على إثر لمسة على الجزء العلويّ من ذراعه اليمنى. فتح عينيْه، ووجد هناك، في طرف المكان، حيث توجد رافعة التلفاز المربَّعة، وجهًا أسودَ ناعمًا يبتسم له، تلك هي الممرِّضة المكلَّفة بقياس ضغط الدم، ولمّا كان مصباح القراءة لم يُطفَأ في غرفته، فقد كان وجهها المستطيل الشكل مضاءً بصورةٍ غير مباشرة فقط، وهذا النّوع من الإضاءة يشبه، من بعيد، إضاءة قطع الأثاث في غرفته في الفندق. ودون أن ينظر إلى العقارب المشعّة في ساعةِ يده الموضوعة على المنضدة الجانبيّة، عرف أنّ الوقت كان ساعة متأخرة من اللّيل. ولم يكُن هناك سوى غطاءٍ خفيفٍ يغطّي جسده في الغرفة الدّافئة الخافتة الضّوء، ونفخت الممرضة أنبوبًا بلاستيكيّا حول ذراعه، ثم فشّته، ثم نفخته مرةً أُخرى، ووضعتْ في فم كارسون واحدًا من القُطع البلاستيكيّة، وبينما كانت في انتظار تسجيل درجة حرارته بأرقام إلكترونيّة على آلةٍ مربوطة في خصره.**

**وحثَّ الطبيبُ الجراحُ كارسون على المشي قائلًا: "انهضْ وامشِ حالما تستطِع ذلك. حرّكْ جسدكَ" فقد اتّضح أنّه ليس المرض الذي يقتل كثيرًا من النّاس في المستشفيات، وإنّما الاضطجاع في السّرير وترك الرئتَين تمتلئان بالسّوائل.**

**كان المشي يقتضي أن يقوم كارسون بدفع حامل أنبوب المصل المغذِّي وما يرافق ذلك من خشخشةٍ وإرباكٍ بسبب طول الأنبوب. ويحتاج ذلك إلى مهارة خاصّة لتمرير عجلات الحامل على العقبات المعدنيّة المرتفعة في أرضيّة المَمرّ المُغطاة، وذلك بأن يضع اليد اليسرى على نقطة التّوازن التي بدت له مثل خصر المرأة ثم يديرها بعيدًا عن طريق مريض آخر يتنزّه مع رفيقته المعدنيّة الطويلة، وتعلَّم كارسون عن طريق ملاحظة المرضى الآخرين حيلةَ انتزاع كيس المصل المغذِّي ثم إعادته بإدخاله تحت كُمّه وتعليقه في مكانه، لكي يستطيع إحكامَ إغلاقِ مريلته. وكانت خطواته الأولى بنعله الإسفنجيّ الطحلبيّ الخضرة الذي زوَّده به المستشفى، محدودة وهشّة، ولكن بمرور الأيام ازدادت مشياته طولًا: حتّى نهاية الممرّ حيث تطلُّ شبابيك غرفة الانتظار على وسط المدينة البعيد، وهناك يوجد سُلّمٌ، مبنيٌّ من الإسمنت والحديد، يكاد يكون جديدًا لم يُستعمل ويقود هذا السّلَّم بعد الهبوط فيه أربعة طوابق إلى السّرداب، كما يؤدّي صعودًا ستة طوابق إلى السّطح ذي الباب المقفل، ثم العودة هبوطًا طابقَين إلى غرفته.**

**وكان يشعر بالسّعادة الخالصة في هذا الجناح من المستشفى الّذي يخلو من النّاس والّذي يردِّد الصّدى، إذ لا يراه ولا يعرفه أحدٌ هناك وأخذ جرس الهاتف يرنُّ في غرفته. لقد رجع رئيس الشركة إلى نيوجرسي، واتَّصل هاتفيًّا مرارًا، ليواسيه أوّلًا ثم ليخطِّط لتعويض المقابلات التي فاتت كارسون بطريقةٍ لا تؤدّي إلى إنفاقِ مصروفاتِ رحلةٍ إضافيّة.**

**وجدَ أنّه بعد أن أمضى ساعةً في غرفته وفراشه انتابه الحنين إلى السُّلّم. في البداية كانت الطوابق جميعها متماثلة، ولكنّه اكتشف الآن وجود اختلافاتٍ خفيّةٍ بينها ـ أثر قديم لأصباغ أُريقت على درجات السلّم في أحد الطوابق، ومجموعة أرقام كتبها أحد العمال بالطّباشير على جدارٍ في طابقٍ آخر، وبقع مائيّة وشقوق في مساحة من الجبس الأصفر في طابق ثالث وليس في بقيّة الطوابق. وفي الأسفل، هنالك سلّة مهملات بلاستيكيّة وباب أحمر كُتِب عليه بخطٍّ كبير تحذيرات تنبّه إلى عدم ضغط الزرّ إلا في حالة الخطر فقط. وفي الأعلى يوجد باب حديديّ عاديّ، بلا مقبض ولا شباك، يحول دون الدّخول. وكانت الأبواب في الطّوابق الوسطى تطلّ على مدخل غريب، مثل منصّة معلَّقة خارج الباب، يؤدّي إلى أقسام المستشفى الفعليّة، وهنالك حواجز إسمنتيّة تمنع القفز فوقها أو السّقوط منها كما تمنع الرّؤية الكاملة، ولكنّها تسمح بمرور الهواء البارد وتتيح رؤية جزئيّة للمدينة تحته.**

**أما الأرض المجاورة للمستشفى فإنّها منبسطة وعاديّة ـ ربع فدان من منازل فسيحة بُنيت منذ زمنٍ بعيدٍ يكفي لذهاب نضارتها، ولتحلّ محلّها علامات التّداعي والانقراض. وكان حائط المستشفى يمتدُّ إلى ما وراء السّلَّم المطلّ على تلك المنازل ويحجبها ما عدا فسحة من الأرض تشتمل على ساحات في إحداها درّاجة ثلاثيّة العجلات ملقاة في أحد جوانب الساحة، وجدران من الباستيل بحاجة إلى صباغة، كما تظهر سطوح منخفضة مغطّاة بالحصى ـ كلُّ ذلك يُشكِّل لعيني كارسون نوعًا متهرئًا من منظر بلدة صغيرة، ولكنّها هنا ضمن حدود المدينة. لم يرَ أبدًا شخصًا يسير على الأرصفة العريضة للشّوارع، وثمّة قليل من السّيّارات التي تتحرَّك في الشّارع حتّى في وقتِ عودةِ الموظَّفين إلى منازلهم. وكان الأقرب والأبرز إلى نظره كومةٌ من ألواحٍ خشبيّة بالية، وأنابيب صدئة، ومستودع مغطَّى بغبار أبيض ومملوء بالجبس والمعدّات ما ينمّ على مرحلةٍ جديدةٍ من البناء نتيجةً لتوسُّع المستشفى. وكان بعض الرجال يأتي أحيانًا لإضافة أشياء إلى القمامة أو إلقاء ألواح خشبيّة بصوت عالٍ، وكانت تلك الأشغال تبدو غير منظَّمة، وتتوقَّف أيام العطل الأسبوعيّة.**

**إنّ المنطقة السّكنيّة الكالحة اللون، والأنقاض المتجمِّعة التي رآها كارسون من خلال أسياخ السياج الإسمنتي والتي لم تكُن تسمح له برؤية عريضة، أعطته، مع ذلك، الانطباع بوجود واقعٍ حقيقيّ واضح، زاخر، رطب، داكن. الحياة كانت هي الحياة. والعالَم، هذا هو العالم. وعندما كان لا يزال غير قادر على صعود السلّم وكان يصطحب حامل المصل بجانبه. جاء أوّلًا إلى هذا الطّابق، وكان مجرّد فتْح الباب يتطلَّب منه جهدًا. وكان الهواء الخارجيّ يتسرَّب إلى جهازه التّنفسيّ، الذي كان ما يزال تحت تأثير الأدوية، مثل قُبلة عنيفة كاسحة، كان ذلك الهواء هواءَ مطلع الخريف الذي يمزج الصّيف بالشّتاء، الكرة المستطيلة بكرة البيسبول، هواء ناشف بارد ومع ذلك فيه كدر وليس نقيًّا بسبب التّوسُّع. وقد سمع كارسون ذات مرّة ضوضاء تصله من بعيد صادرة من آلة قطع الخشب. وحتّى اليوم الذي سُمح له بمغادرة المستشفى، كان يأتي إلى هنا في الظّلام ويتكئ على الحاجز الإسمنتيّ ويتنفّس، محاولًا أن يستوعب في أعماقه معجزة العالَم؛ ومحاولًا أن يُعيد برمجة نفسه كسابق عهدها لتندمج بالحياة مرّةً أُخرى. وكان يحسّ بالهواء البارد على مرفقَيه المكشوفتَين، ويرى نفَسه يخرج كالبخار المرئيّ، ويشعر بخصيتَيه تستقرّان بجوارِ ألمِ النّقاهة.**

**واستقلَّ سيّارة أجرة إلى المطار مباشرة، ولم يرَ من المدينة إلا معالمها التي لاحت له عن بُعد حين مرّ بالطريق السيّار وبتقاطع الطُّرق الزّاخر بالسيّارات. وبعد إقلاع الطّائرة انتشرتْ تحته المدينةُ مثل خريطةٍ ثمَّ اختفتْ. ومع ذلك فإنّه عندما فكَّر في أصوات المزارعين، وناطحات السّحاب البعيدة، وزيارات الممرِّضات الليليّة، والأطباء، والمنازل الملطَّخة التي لا تثير أيَّ انتباه، وعشرات الوجوه التي ارتفعت مع الألم إلى سطح مُخيَّلته، بدا له أنّه توصل إلى معرفة المدينة عن كثب.**